شهادة ذاتية

معلمة بين تجربتين

عبير العسود

ما كنته أنا قبل المنتدى ربما تعرفونه جميعكم، فنحن كمعلمين ومعلمات على الأغلب نسخ تكرر بعضها البعض: ننهض باكراً في الصباح، نذهب إلى المدرسة، صباح الخير يا مديرتي الفاضلة، نحمل دفاتر النسخ والواجبات البيتية، نذهب إلى الصف نتصنع الابتسامة، نلقي درساً نحفظه عن ظهر قلب. نصفق للتلاميذ ويصفقون لنا. ننظر إلى الساعة لنعرف كم بقي من الوقت على انتهاء الدوام المدرسي.

عند الظهيرة نعود إلى البيت محملين بأعباء نسخ وتحضير جديدة، نتوجس من غارة مفاجئة لمفتش من التربية. وربما يصدق حدسنا، ونكون في اليوم التالي على موعد مع مفتش يسأل عن دفاتر التحضير، ويبدي ملاحظات قيمة عن أناقة الدفتر ونوع الخط وطريقة التسطير.

شكراً لك يا مفتشي الملهم والعبقري على ملاحظاتك القيمة. في المرة القادمة سأسطر باللون الأحمر وسأكتب العناوين بالأخضر، أما المحتوى فسأكتبه بالأسود لكي يبدو دفتر التحضير أنيقاً ووطنياً جداً.

هذه هي حياتنا التربوية في المدرسة، نمط ثابت يكرر نفسه كل يوم.

ولكن دائماً في الحياة توجد مفاجئات وانعطافات تنقلنا إلى أماكن وخبرات وتجارب جديدة، إحدى أهم اللحظات في حياتي التربوية والثقافية، هي تلك اللحظة التي عرض عليَّ فيها زميل لي الانضمام إلى منتدى معلمي إذنا.

لقد ترددت في القبول لسبب بسيط، وهو أنني خشيت أن يكون كل المعلمين يائسين مثلي. وأيضاً خشيت أن يكون المنتدى عبئاً إضافياً على عملي المدرسي. على أي حال، قبلت الدعوة، وصرت عضواً في المنتدى، وفي ظني أن منتدى المعلمين هو مثل أي مؤسسة ثقافية أو تربوية في هذا الوطن.

وذات يوم وصلتني دعوة لحضور ندوة نظمها المنتدى، وحين ذهبت، وجدت نفسي بين معلمين ومعلمات من بلدتي وجلست في الصفوف الخلفية على استحياء.

شيئاً فشيئاً بدأت أحس بالألفة، وشيئاً فشيئاً بدأت الصورة النمطية عن المعلم التي في ذهني تتشوش، إذ وجدت أن مدير الندوة والمتحدثين والجمهور كلهم من الزملاء والزميلات الذين أعرفهم. كانوا يتحدثون بشجاعة وحرية وديمقراطية لم آلفها في مدرستي. كانوا يتحدثون بلغة أنيقة، مستخدمين مصطلحات وكلمات لا توجد في قاموسي، كانت هذه اللحظة بداية القلق وبداية الأسئلة وبداية التفكير على نحو جديد.

صحيح أنني لم أجرؤ على الحديث في تلك الندوة، إلا أنني خرجت من الندوة محملة بالأسئلة عن نفسي وعن دوري في المدرسة والمجتمع، وكانت هذه الحادثة بداية لإعادة اكتشاف ذاتي من جديد. وهكذا داومت على حضور الندوات والحوارات التي ينظمها المنتدى بشكل دوري. وبدأت أتلمس الشجاعة وأبدي بعض الآراء والمداخلات من حين لآخر.

بعد فترة من الزمن عرض عليَّ زملاء وزميلات لي أن أخوض انتخابات الهيئة الإدارية لمنتدى المعلمين. وقبلت الدعوة ونجحت في أن أكون في هيئة المنتدى.

لقد مضى الآن قرابة السنة على انخراطي في المنتدى، وخلال هذه الفترة القصيرة تغيرت في أشياء كثيرة لدرجة أنني صرت أشفق على نفسي التي كنتها قبل المنتدى.

لقد أصبحت القراءة الثقافية عادة يومية لا استغني عنها، فحيثما أذهب سواء في البيت أو المدرسة أو في السيارة أحمل كتاباً. إنني دوماً على موعد جديد مع كتاب أو رواية أو ديوان شعر. لكن الأهم من ذلك إنني اليوم كمعلمة أحمل قناعات جديدة ومغايرة اتجاه الناس والمدرسة والحياة بشكل عام، لقد بت أحب تلميذاتي أكثر من أي وقت مضى، وبت أحب العمل في المدرسة، لا لشيء إلا لأن نظرتي للأشياء من حولي تغيرت نحو الأفضل.

قصة أخرى لا بد لي أن أذكرها في هذه العجالة، فقد كلفت مع زملاء لي في المنتدى بتنظيم معرض للفن التشكيلي يضم جناحاً للفنان ناجي العلي. وعلى مدار ثلاثة أيام من التحضير للمعرض، أنهكت خلالها من التعب، لكن كل هذا التعب تحول إلى سعادة غامرة وأنا أرى الناس طلاباً ومعلمين وضيوفاً من المجتمع المحلي يزورون المعرض فرحين مسرورين، لأنهم يشاهدون لأول مرة معرضاً فنياً في بلدتهم، كنت أقرأ الرضا في عيونهم وهم يعاينون اللوحات ويسألون:

- من هو ناجي العلي؟
- ومن هو حنظلة؟
- ولماذا يدير حنظلة وجهه دوماً؟
- ولماذا يرسم ناجي العلي باللون الأسود فقط؟

لقد كانت أسئلتهم هي أسئلتي أنا، لقد خرجت من تلك التجربة بكم هائل من الأسئلة، وأنا الآن فخورة بنفسي لأنني تحولت بفضل المنتدى إلى إنسانة متسائلة. ففي كل ندوة أو حوار ينظمه المنتدى، أضيف لذاتي أسئلة جديدة ومعرفة جديدة.

وخلال تجربتي القصيرة في المنتدى كان زملائي يطلبون مني أن أكتب، ولكني كنت أرفض الدخول في تجربة الكتابة لاعتقادي أنني لست مؤهلة بما يكفي لهذه المهمة، كنت أظن أن الكتابة مقصورة على فئة من الناس هم الكتاب، إلى أن شاركت في يوم المنتديات السابق في رام الله الذي نظمه مركز القطان، وشاهدت تجارب معلمين في الدراما، يومها عدت إلى البيت وأنا في أشد حالاتي انفعالاً، ومن حيث لا أدري مسكت القلم ورحت أكتب انطباعات معلمة انحرفت بها الطريق إلى جادة الصواب. كانت تجربة الكتابة من أصعب تجاربي في المنتدى، كنت خائفة وقلقة من أن ما أكتبه مثير للسخرية، وترددت أن أعرض ما كتبت على زملائي في المنتدى لخوفي من عدم صلاحيتها للنشر، وحين قرأها الزملاء في المنتدى شجعوني على نشرها، وكم كانت سعادتي حين رأيتها منشورة على صفحات مجلة **رؤى تربوية**.

وها أنا اليوم أشارك للمرة الثانية في يوم المنتديات بخوف أقل وبجرأة لم أعهدها في نفسي من قبل، من المؤكد أنني بت معلمة جديدة متسائلة ناقدة ثائرة، وودعت لآخر مرة المعلمة التي كنتها من قبل: الصامتة، المجيبة، الطائعة.

فشكراً لكل من ساهم في إضاءة الطريق لي: منتدى معلمي إذنا، ومركز القطان.

عبير العسود
منتدى معلمي إذنا